

# مَدَنَةُ الكِفْل

عطا الحديشي  
معاون مدير الآثار العام

بلدة الكفل في العراق والتي عرف موضعها قبل

ذلك بـ ( بر ) ملاحه<sup>(١)</sup> .

ذكرها ياقوت الحموي والهروي « موضع  
بر ملاحه بها قبر ذي الكفل حزقيل من قبل بالقرب  
من قرية شوشه أسفل من حلة بين مزيد<sup>(٢)</sup>

وذكرها ابن بطوطه باسم ( بر ملاحه ) وهي  
بلدة حسنة بين حدائق نخل<sup>(٣)</sup> ، وذكرها

نورالدين الموسوي باسم ( الخان الاخير )<sup>(٤)</sup> .  
وكما قلنا ان هذه البلدة بها مشهد الكفل  
واليهود يزورونه ويترددون عليه ويحملون اليه  
النذور .

موقعها وتاريخها :

يستطيع الزائر الوصول الى الكيفل عن  
طريق الحلة العام فهي تتوسطه بين الحلة  
والكوفة على الضفة اليسرى لنهر الهندية بها مدفن  
ومزار ذي الكفل .

وذو الكفل هذا شخص ذكره القرآن  
الكريم في كلامه عن طائفة الانبياء وقد عينت  
الروايات الاسلامية المحلية قبورا واضرحة لذي  
الكفل في شتى البقاع الاسلامية المحصورة بين  
فلسطين وبلخ . ، منها قبة في قرية كَفَلِ حارس  
من اعمال نابلس بفلسطين وقبر ذي الكفل في

(٣) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ج ١  
ص ١٢٨ ( القاهرة ١٣٥٧ هـ ) .

(٤) الموسوي ( أبو العباس ) : نزهة  
الجليس ومنية الأديب الانيس ج ١ ص ٨٤ ( مصر  
١٢٩٣ هـ ) .

(١) دائرة المعارف الاسلامية م ٩ ص  
٤٠٥ - ٤٠٧ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥  
ص ٣٠٧ ( القاهرة ١٩٠٦ م ) ، الهروي : الاشارات  
الى معرفة الزيارات ص ٧٦ ( القاهرة ) .

ومهما يكن فأن في الكفل منارة وكما تروي لنا المصادر التاريخية ان السلطان المغولي اولجايتو محمد خدابنده أخذ حراسة هذا المكان من اليهود واعطاه للمسلمين وبنى هناك مسجداً مع منارة (٥) .

ويضيف هرتزفيلد ان السلطان سعيد بهادرخان ابن السلطان اولجايتو الذي حكم من ٧١٦ - ٧٣٦ هـ هو الذي أتم بناء هذه المنارة بعد وفاة والده (٦) .

وبعد وفاة السلطان غازان محمود تولى الحكم أخوه السلطان اولجايتو محمد بن ارغون ثامن الخانية فارس (٧) ٧٠٣ - ٧١٦ هـ ، ملك العراق وخراسان واذربيجان واتخذ الاسلام ديناً له وسمى نفسه محمد خدابنده ومعناه بالعربية (عبدالله) (٨) وجاء في شذرات الذهب وأبي الفدا خربنده (٩) ولقب بغيث الدين (١٠) وظهرت له عدة القاب على مسكوكاته . السلطان الاعظم . مالك رقاب الأمم . غياث الدنيا والدين (١١) . وكان هواء مع الشيعة أول الامر ثم اتبع مذهب أهل السنة ولكنه عاد فصمم على اتباع مذهب

الشيعة اثر زيارته لقبر الامام علي (١٢) . وكان جواداً يؤثر اللعب يحب العمارة انشأ مدينة في اذربيجان سماها سلطانية واتخذها عاصمة ملكه (١٣) . توفي مسموماً في ٢٠ رمضان سنة ٧١٦ هـ عن عمر ٣٢ سنة ومدة حكم ١٤ سنة (١٤) . أعود فأقول ان النزاع بين المسلمين واليهود وعلى هذا المكان المقدس والمنارة والذي ابتدأ من عهد السلطان اولجايتو واستمر الى أيام السلطان عبدالحميد أقول لهذا النزاع حكاية طريفة . فقد ادعى الحاج ذرب رئيس بلدية الكفل آنذاك بأن جامع ذي الكفل يعود للمسلمين بدليل وجود منارة فيه يؤذن للصلاة عليها مع محراب مشهود فانكر اليهود هذه المنارة وادعوا ان الجامع لهم .

فندبت حكومة بغداد رجلاً من موظفيها ليحل عقدة هذا الخلاف فجاء الرجل قرية الكفل وجلس تحت المنارة وكتب تقريراً خلاصته ان لا منارة في مدفن ذي الكفل فاغتاز الحاج ذرب من هذه المعاملة القاسية ورفع الامر الى حكومة الاساتنة محتجاً فجاءت لجنة للتحقيق في هذا

(١٠) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠ ( بغداد ١٩٣٦ ) .

(١١) مهذب درويش لطفي : الالقاب على المسكوكات الالمانية ، مجلة سومر م ٢١ ص ١٥٧ - ١٦٦ ، بغداد ١٩٦٥ .

(١٢) دائرة المعارف الاسلامية م ٢ ص ٥٠٠ .

(١٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٧٨ ( حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٩ هـ ) .

(١٤) عباس العزاوي : ( تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٤٦ ، بغداد ١٩٣٥ ) .

(٥) Mustawfi (Hamad-Alla): Nuzhat Al-Qulub "Translated" by G. Le Strange (Leyden 1919) p. 39.

(٦) Herzfeld: "Sanctury of Dul Kif" Ars Islamic (1942) p. 30.

(٧) دائرة المعارف الاسلامية : م ٩ ص ٤٠٥ .

(٨) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٧٨ ( حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٩ هـ ) .

(٩) ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٦ ص ٤٠ ( القاهرة ١٣٥٠ هـ ) ، أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٤ ص ٥٠ .

ومنارة عنه في اعالي الفرات ذات الشكل المثلث على قاعدة مكعبة ويرجعها هرتسفيلد الى حكم الدولة العقيلية ٣٨٦ - ٤٨٦ هـ ، ومنارة رابعة هي المنارة الخيلية قرب الضفة اليسرى من نهر الفرات جنوب مدينة عنه بمسافة ٨ كم والتي تشبه الى حد ما منارة عنه من حيث الشكل ومادة بنائها بالحجر والجص (١٧) .

ولمئذنة الكفل قاعدة ارتفاعها ٤م ينتصب فوقها بدن المئذنة ومحيطه ١٠ر٢٠ مترا وارتفاعه ٢٠ مترا وبذلك يكون الارتفاع الكلي للمنارة ٢٤ مترا .

يضم البدن من الداخل مدخل صغير للطلوع ارتفاعه ١ر٣٠ مترا وعرضه ٥٠سم يؤدي الى سلم حلزوني من ٥٩ درجة يرقى اليه بواسطته الى اعلى المنارة حيث يستطيع الزائر من النفوذ الى حوض المنارة من خلال باب صغير ارتفاعه ١ر٧٥ متراً وعرضه ٦٠سم . والسلم مضاء بانتي عشرة نافذة موزعة على بدن المئذنة كل منها معقودة بعقد مفصص ، الغرض من احداثها الاضاءة والتهوية .

وتجدر الاشارة الى ان بعض المنائر العراقية تضم بداخلها سلمين يدوران باتجاه معاكس كمئذنة الجامع النوري في الموصل (١٨) وتأريخها يعود الى عهد نورالدين زنكي ٥٦٨ هـ والمنارة

الامر ولكنها بمجرد وصولها الى بغداد توصل اليها اليهود بالمال فأيدت التقرير الاول نافية وجود المنارة (١٥) .

وقد قيل في هذه المنارة « انها تهتز اذا قال الواقف عليها » ياسر سليمان بن داود » وقد رأى هذه المنارة مهندسون مسلمون وأجانب وقالوا انها مبنية على طريقة تدفع بها الى النوسان . . . . (١٦) هذا ما رواه لنا الاب انستاس ماري الكرمللي وأكدها غير اتنا لا نصدقها .

### الجانب العماري :

امتازت المآذن العراقية بصفات عديدة من حيث الشكل ومادة البناء وجعلتها تختلف عن بقية المآذن في العالم الاسلامي . وعلى غرار المآذن العراقية نجد ان منارة الكفل مشيدة بالآجر والجص وهما مادتان عرفتا منذ القدم ، ولتوفرهما في أنحاء كثيرة من العراق ، اضافة الى ان الآجر مادة طيبة بيد الفنان والنحات من حيث سهولة الصنع وقابلية التكيف .

والمئذنة اسطوانية المظهر ، وهذه من جملة الصفات المميزة للمآذن العراقية باستثناء القليل منها شيدت بمقاطع بنائية مختلفة كالمئذنة الملوية ومئذنة جامع ابي دلف بسامراء اللتين تبدوان بمظهر اسطواني مخروطي على قاعدة مربعة ويرجع تأريخهما الى منتصف القرن الثالث الهجري ،

عنه ، سومر م ٢٥ ص ١٣١ - ١٤٠ ، بغداد ١٩٦٩ .

(١٨) سعيد الديوجي : جوامع الموصل ص ٤٢ ، بغداد ١٩٦٣ ، جامع النوري ، سومر م ٥ ، بغداد ١٩٤٩ .

(١٥) عبدالرزاق الحسيني : موجز تاريخ البلدان العراقية ص ٨١ (بغداد ١٩٣٣) .

(١٦) الاب انستاس ماري الكرمللي : « الكفل : تعريفه ووصفه » ، مجلة المشرق م ٢ ص ٦٦ ، (١٨٩٩) .

(١٧) كمال عباده : الصيانة الاثرية في

المظفرية في أربيل في عهد مظفر الدين كوكبري<sup>(١٩)</sup> « ٥٨٦ - ٦٣٠ هـ » وكلاهما من العصر الاتابكي . وكذلك مئذنة سوق الغزل في بغداد ٦٧٨ هـ<sup>(٢٠)</sup> .

يتمثل هذا الحقل من بدن المنارة مسافة بارتفاع ١٤٣ متراً وقوام زخرفته أشكالاً ونقوشاً هندسية بهيئة معينات من حشوات مربعة غائرة منقوش فيها وريجات رباعية مفرغة تحيط بمعينات بارزة من الأجر المنتظم الخالي من النقوش . وتتوسط المعينات البارزة ورده بأربع وريجات نقشت بالأجر البارز أيضاً وسط معينات صغيرة مماثلة للمعينات الغائرة والمذكورة آنفاً ، وهكذا يتكرر هذا النوع من الزخارف بصورة متعددة في هذا الجزء من بدن المنارة شكل رقم ١ - .

أما من الخارج فيظهر بدن المئذنة الأسطوانية مجزأة إلى حقول وشرائط مختلفة محلاة بزخارف هندسية نباتية وكتابية متقنة الصنع لا تقل بروعتها عن المقرنصات التي تزين حوض المنارة من الخارج والتي أضفت على المئذنة مظهراً جميلاً سنأتي على وصفها بعدئذ . وفي وسط حوض المنارة ينحسر البدن ويكون محيطه ٧٣٥ متراً ينتهي بقمة مضلعة من ٢٤ ضلعاً كل منها يبرز بمقدار ٥ سم عن الشمعة .

### الهيئة الزخرفية :

وبعد ذلك يظهر صف من الأجر المشيد بطريقة أفقية يليه صفان آخران من الأجر المنام بهيئة عمودية وجميعها خالية من النقوش . ثم تعلوهما شريط زخرفي بارتفاع ٤٠ سم محصور بين أفريزين بارزين بمقدار ٥ سم عن سطح بدن المئذنة ، نحتاً بهيئة نصف دائرة حسبما يعرف بالمصطلح العماري العراقي « العقال » وقوام زخرفة كل منهما نجمة رباعية محفورة حفراً غائراً فتكونان نجمتين على كل آجرة - شكل رقم ٢ - أما زخرفة الشريط الكائن بين هذين الأفريزين فهي وردات رباعية بارزة من الأجر المنتظم داخل إطار من معينات متصلة ومعمولة من حشوات مربعة منقوش فيها وريجات رباعية غائرة - شكل رقم ٣ - وعند هذا الحد من بدن المنارة

قام المعمار بتزيين منارة الكفل بأشكال متعددة من الزخارف الهندسية المتقنة جعلها تبدو للعيان بهيئة رائعة جدا فهي تضم بمجموعها ثلاثة حقول رئيسية من الزخرفة بينها أفارين واحزمة متكررة تدور جميعها حول البدن . ومهما يكن من أمر سأحاول وصف تلك الحقول والأشرطة الزخرفية ابتداءً من أسفل البدن لألقي ضوءاً على زينة هذه المئذنة الجميلة . وبالاستعانة بالمخطط رقم ١ - يكون القارئ على بينة بما سيئسله ووصفي لما تضمنته المئذنة من نقوش .

وعلى ارتفاع ٥٠ سم من قاعدة المنارة يقوم صف من الأجر خال من الزخرفة شيد بصورة عمودية على « كازه » - طبقاً للاصطلاح العماري

(٢٠) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٣٧١ ، ( بغداد ١٩٣٢ ) .

(١٩) وداد القزاز : المنارة المظفرية ، سومر م ١٦ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، بغداد ١٩٦٠ .

الثلاثة لبدن المثذنة اضاف البناء صفا من الآجر المشيد بوضعية عمودية ، حيثذ عمد الفنان الى تخليد هذا الاثر بشريطين مكتوبين بالاجر البارز يلتقان حول البدن وعلى أرضية مزخرفة وجعلهما محصورين بين اطارين متشابهين من الزخرفة الهندسية قوام نقوش كل منهما صف مدور من الاجر البارز حسب الطريقة المعروفة « بالعقال » وهي شبيهة تماما بالتي مر وصفها سابقا في الشكل رقم ٢ - يليه افريز محفور بنجوم رباعية متتالية ومتصلة بعضها \* .

اما النصان المكتوبان فيذكران دون ادنى شك تأريخ التشييد واسم الأمر بالبناء مع اطراء لذكره والقابه ومديحجه جريا على العادة المألوفة في الزمن القديم عند تشييد أو تعمير أي اثر عماري \* ومع الاسف الشديد لم يبق من هذين النصين الكتابيين سوى بعض الكلمات تذكرها كما يلي :-

النص الاول - الصف العلوي [ .. السلطان  
الاعظم غياث الدنيا والدين .... ندة محمد  
طاب ثراه ... السلطان ... ]

النص الثاني - الصف السفلي [ ... الله  
تعالى طلبا لجزيل نوابه الامير المعظم العادل ملك  
الامراء منشيء العدل ومقرره حارس ... ]  
وقد اورد هرتسفيلد نصهما بشكل يختلف في  
بعض الكلمات .. الصف العلوي \* [ ... لا  
... السلطان الاعظم غياث الدنيا والدين [خدا]ب  
ندة محمد طاب ترابه وتمت [ في [دول] ل [ةول]دة  
السلطان \* .

الصف السفلي [ .. الله تعالى وطلبا لجزيل

ترايه ] الامير المعظم العادل ملك الامراء منشيء

يبدأ الحقل الزخرفي الثاني ويكون بارتفاع ثلاثة أمتار ، قوام زخرفته كتابة كوفية كبيرة وبارزة نصها « ودي حب \* محمد وعلي » فيكون حرف الواو من كلمة ودي مشتركا بينها وبين كلمة علي ، فتكون ربع الحقل الزخرفي ، وقد نحتت الحروف الكتابية بأجر بارز على طريقة « الظفر » مكونة بذلك جامات سداسية متكررة منقوشا في كل منها حلية زخرفية بهيئة وردة مفرغة - شكل رقم ٤ - ويجدر التنويه الى ان تلك الزخرفة الكتابية الرائعة تبرز من أرضية مزينة بوريدات رباعية الاوراق تظهر بصورة متراسة - أنظر شكل ٥ - \* .

بعد الحقل الزخرفي الثاني مباشرة ، وبعد ان اضاف المعمار صفا من الآجر الافقي ، ربما كانت الغاية من اضافته تمكين المشاهد من تمييز النقوش المختلفة عند انتقاله من مرحلة زخرفية الى أخرى بعد كل ذلك يجد المشاهد شريطا زخرفيا بارتفاع ٤٠سم كائنا بين افريزين من الآجر البارز يماثل تماما الشريط الزخرفي الاول الذي وصف سابقا تبعا للشكل رقم ٢ - \* .  
وبعدئذ نلاحظ وجود صفين من الآجر المشييد بوضعية عمودية وآخر بهيئة افقية ، عندها يبدأ الحقل الزخرفي الثالث الذي هو بمضمون نقوشه وزخارفه شبيه ابعده الشبه بالنقوش الواردة في الحقل الزخرفي الاول . والاختلاف الوحيد بينهما ان المعمار اقتطع للحقل الاخير من بدن المثذنة مجالا اوسع ارتفاعا من الحقل الاول ، حيث يكون هنا ما يقرب من ٢٨٠ متر - أنظر المخطط رقم ١ - \* .

وباتهاء الحقل الاخير من الحقول الزخرفية

العدل ومقرره وحاً... [٢١] ويعلو الاطار الزخرفي للنصين المذكورين صف من الاجر المقام عموديا يليه شريط زخرفي غير واضح المعالم يحصران بينهما مربعات صغيرة مفرغه ومتتالية بالصورة المعروفة عماريا ( شريط حبات السبحة ) •

اما الجزء العلوي من بدن المنارة الذي يشمل الحوض فقد توجه الفنان بشرفة بديعة من المقرنصات أو الدلايات جعلها تبدو بأربعة صفوف من النقوش الزخرفية تزين بواطنها زخرفة مخملية محكمة الصنع يعلوها شريط زخرفي آخر من آجر غير مزخرف موضوع بوضعية متعاكسة ثم شرفة خالية من الزخرفة تدور حول حوض المئذنة ( مصورة رقم ١ ) اما طراز المئذنة بصورة عامة فيكون قريبا الى مئذنة سوق الغزل ومنارة واسط وكذلك مئذنة المكيطيمه في اليوسفية •

#### الصيانة :

لقد مر زمن ليس بقصير على تشييد مئذنة الكفل فقد ظلت شامخة تتحدى عوامل الطبيعة القاسية من الرطوبة والحرارة والرياح الى غيرها من عوامل التعرية والتآكل • ونتيجة لتلك المؤثرات فقد أصاب غالبية أجزاء المنارة العمارية والزخرفية الكثير من التلف والخراب ( أنظر مصورة رقم ٢ ) وكان ذلك سببا قويا لان تتدخل احدى الجهات المسؤولة للقيام بصيانة أقسامها البنائية وترميم نقوشها الزخرفية الجميلة بغية المحافظة على هذا الاثر • وبعد مراسلات استمرت

كما ان اختفاء الاثار المتبقية من زخرفة الافريز الكائن أسفل المقرنصات التي تزين حوض المنارة من الخارج والتي اعادته الدائرة المذكورة بأجر خالٍ من الزخرفة له اثر كبير في تشويه مظهر المئذنة • اضافة الى كل ذلك ان النصين الكتابيين اللذين يدوران حول البدن قد حوِّرا الى غير طبيعتهما حيث نقلت بعض الكلمات وحلت محلها كلمات أخرى أو بالأحرى تم رفعهما كلية ووضع مكانهما آيات قرآنية أخرى غير ان تدخل بعيد عن الواقع •

قامت الدوائر المذكورة باعادة أكثر أجزاء المنارة بالآجر الطبيعي دون الحاجة الى زخرفته او نقشه ( أنظر المصورة رقم ٣ ) ولعل الغاية من هذا كانت مجرد حفظ المنارة بصورة قائمة غير انه بالرغم من ذلك يلاحظ ان الجانب الزخرفي الوحيد المتبقي من المئذنة هو الجانب الشرقي قد حوِّر هو الآخر بشكل يختلف عن الاصل وان الحقل الزخرفي الثالث في بدن المنارة اعيد بشكل

الآثار اعاد النضان الى اصلهما<sup>(٢٣)</sup> . وفي الحقيقة على ما هي عليه الآن ولظهرت كالأصل ومع هذا لو ان صيانة تلك المئذنة الجميلة انبسطت الى كفه فمن الممكن تلافي هذا الخطأ بصيانتها مجددا مديرية الآثار العامة لما اصابها من التغيرات الفنية واعادتها الى صورتها الاصلية .

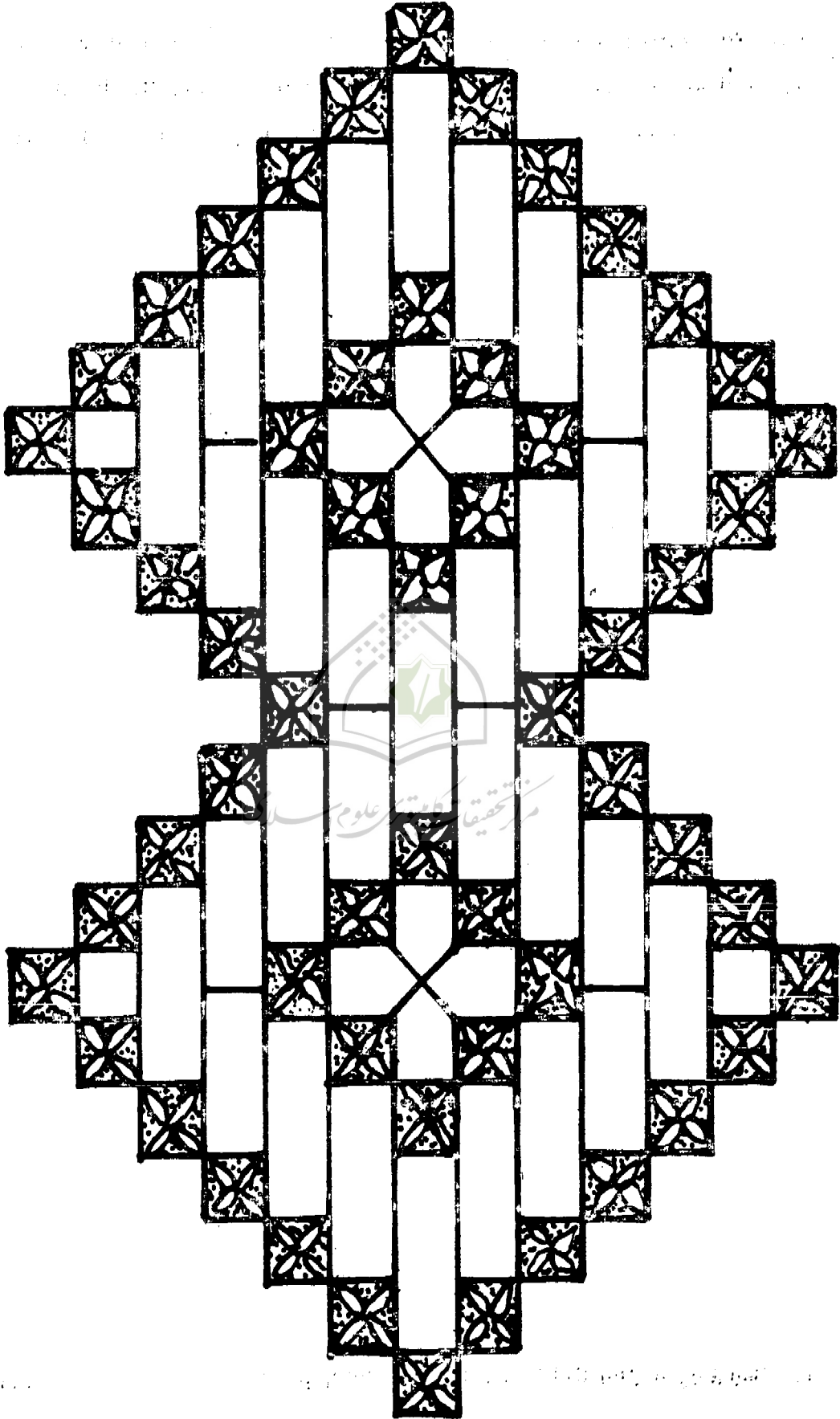


مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم رمدى

Herzfeld: "Sanctuary of Dul Kif" Ars Islamic (1942) p. 31.

(٢٢)

(٢٣) اضبارة مديرية الآثار العامة .

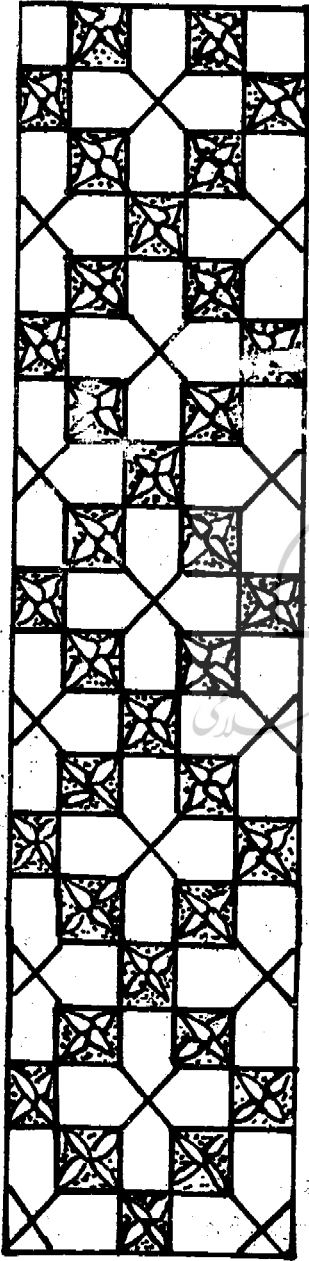


شكل رقم (١)  
نموذج يمثل نقوش الحقل الزخرفي الاول

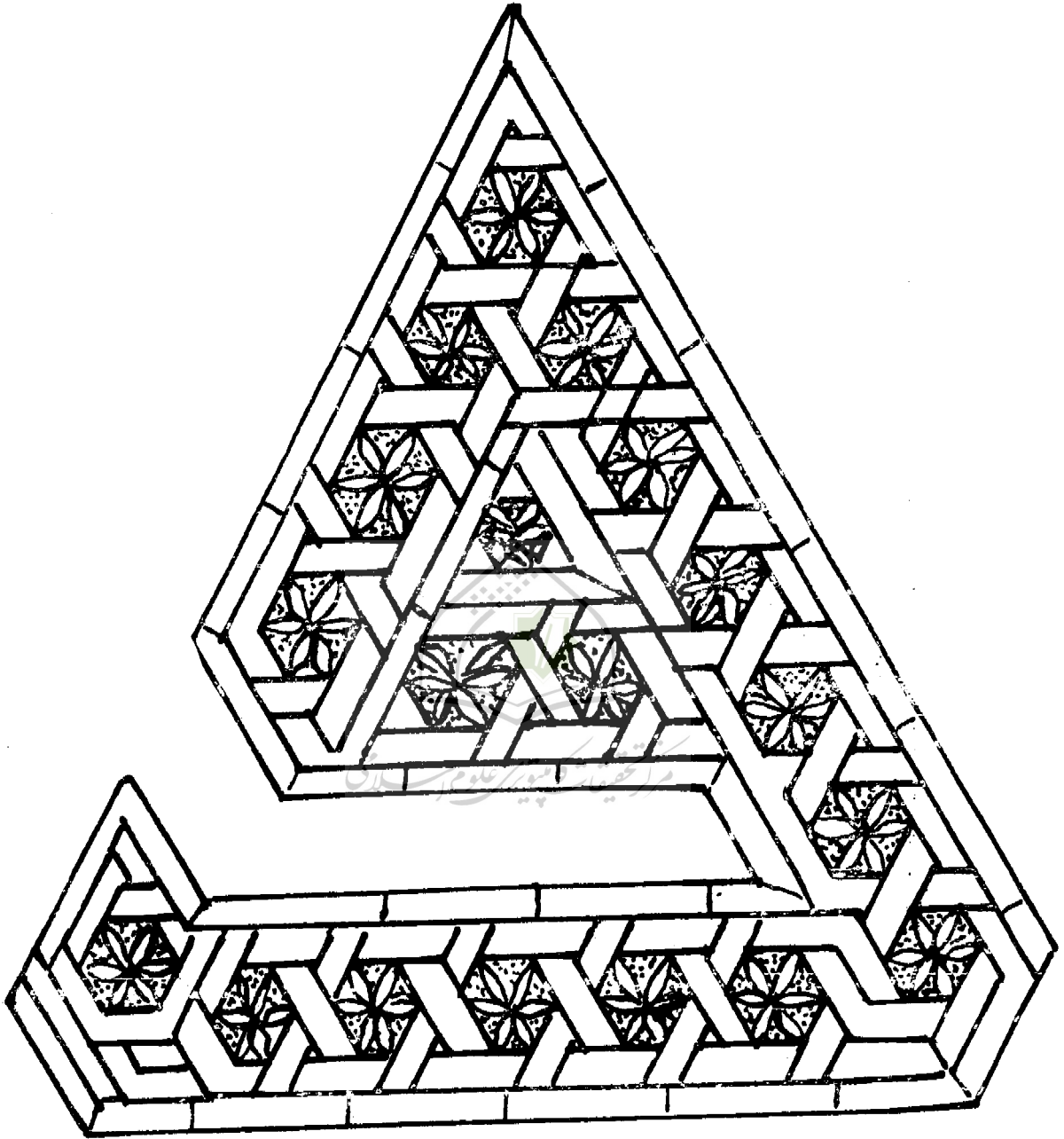




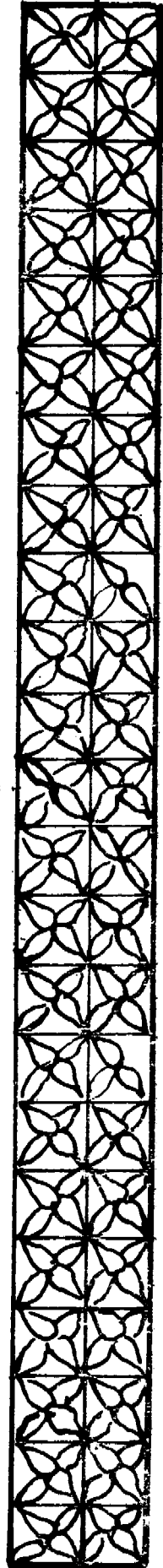
شكل رقم (٢)  
نموذج لزخرفة الأبريز المعمول بطريقة « العقاب »



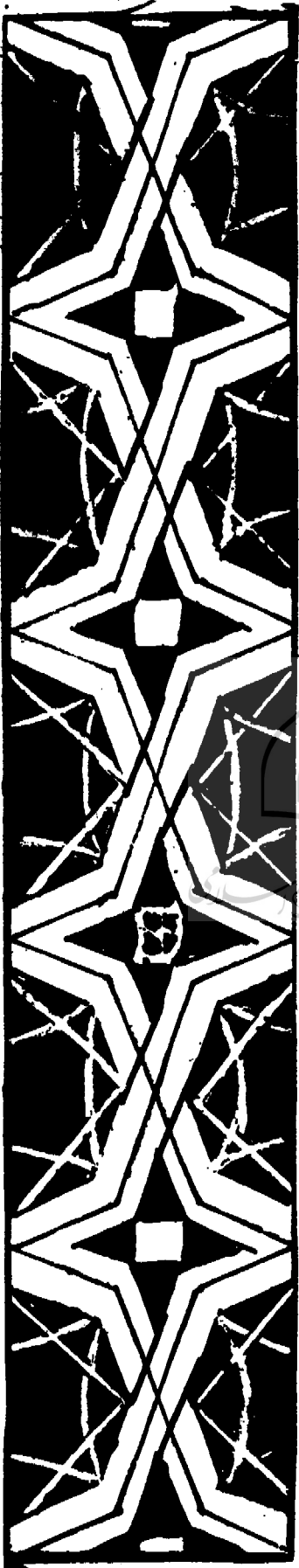
شكل رقم (٣)  
نموذج لتقوش الشريط الذي يتخلل حقول المئذنة الزخرفية



شكل رقم (٤)  
نموذج يمثل حرفا من أحرف الكتابة الكوفية التي تزين الحقل الزخرفي الثاني



شكل رقم (٥)  
نموذج لتقوش أرضية الحقل الزخرفي الثاني



شكل رقم (٦)  
نموذج يمثل الاطارين الزخرفيين المحيطين بالتشريطين الكتابيين

